كما يشير عُنوان هذه الدراسة النقدية، فإنّ موضوعها الرئيسيّ يدور حول طبيعة وديناميكيّات العُنوان الدالّ، كدلالة افتتاحية، في الأعمال القصيرة من الروايات العربية للكتّاب الفِلَسطينيين في إسرائيل. حيث يضع المؤلّف الدور الهامّ للعُنوان في علاقة تكوينية مع الفرعين الآخرين: النصّ والسياق، لتقدّم بشكل جمعيّ الإطار المضفّر الذي تُختَبَر القصص المختارة ضمنه. وأيًّا كان خِيار المرء لتصوّر الترابط المعقّد بين هذه المصادر الرئيسية الثلاثة للمعنى، فإنّ حسّ الترابط والسببيّة التكوينية بينها يبدو أمرًا محتّمًا. كيف يتنبّأ العُنوان الوحيد أو يعرّف أو يثير مشكلات التطوّرات في النصّ؟ وكيف تنخرط العناصر في النصّ وتلفت الانتباه إلى الأحداث والظروف – السِّيرية والاجتماعية السياسية والتاريخية وغيرها – المحيطة به؟ لهي الأسئلة الرئيسية التي يسعى تحليل الأعمال المختارة للإجابة عنها. ويبدو أنّ الفرضية النظرية الكامنة التي توجّه كلًّا من نهج الدراسة العامّ وتحليلها النصّيّ والسياقيّ التفصيليّ تقترح أنّ تجاهل أيٍّ من هذه الفروع الثلاثة يعني حتمية انتفاء الدقّة والخلوّ من المحتوى عن النصّ الأدبيّ وتقييمه النقديّ، بل وأسوأ.

إنّ اللجوء إلى العامّيّة الفِلَسطينية بأيٍّ من لهجاتها الإقليمية، سواء أفِي العُنوان أم النصّ، يوفّر أحد العنصرين الرئيسيّين لحلّ الشبكة المتداخلة من العلاقات الهامّة في النصوص قيد الفحص. أمّا المفتاح الآخر فهو مقتبس من الرؤى والممارسات والإستراتيجيّات لمنظّري وعلماء إشارة أدب الحداثة وما بعد الحداثة؛ وخصوصًا جوليا كريستيـﭭـا وجين ﭼـينيت.

وتوفّر العيّنة التمثيلية – إلى حدّ ما – وهي من أربع عشرة قصّة مختلفة الطول تمّت كتابتها بين عامي 1948 و2012، مادّة للتحليل الشامل. وقد كتبت ثلاثًا من هذه القصص، فقط، نساء. لتشير هذه الحقيقة المجرّدة إلى عامل النوع الاجتماعي وتقيس بدقّة التفاوت بين مشاركة الفِلَسطينيين من رجال ونساء في الإنتاج الأدبيّ والفنّيّ. ويُظهر تحليل 177 مراجعة في ثلاث مجلّات دراسات شرقية لقصص كتبتها نساء أنّه من المستحيل المرور بهذا الاختلاف وتبعاته الاجتماعية والسياسية العميقة مرور الكرام.

بالإضافة إلى المقدّمة، التمهيد، الخاتمة، قائمة المراجع، والفهرس، يحتوي الكتاب على خمسة فصول تصنّف القصص المختارة بالنسبة إلى معيارين رئيسيين: التسلسل الزمنيّ والانتماء العامّ. وكما تُظهر القائمة التالية، فإنّ عناوين الفصول الخمسة تشير إلى اتجاهين في آن. إلّا أنّ الاتجاه العامّ يتحرّك بثبات بعيدًا عن الأنماط التقليدية للكتابة العربية: العربية الرفيعة في المقام الأول والأسلوب الأدبيّ المضطرب أحيانًا، ليميل نحو العامّيّة وغير الفصيحة الأكثر اقتصادًا في اللهجات المنطوقة. ويظهر هذا بوضوح في "الترجمات" المرفقة بعناوين المجموعات التي اقتبست منها القصص المحدّدة. ولهذا نجد عناوين فصول عامّة مثل "بين الكلاسيكية والرمانسية" و"الغوص في الثقافة الشعبية" مقسّمة إلى تصنيفات تأطيرية أعمق لكلّ مجموعة. فعلى سبيل المثال، ينقسم الفصل الـ 4 بعُنوان "الغوص في الثقافة الشعبية" إلى: 4.1 "خطيئة: الجريمة والعقاب، النسخة الفِلَسطينية"، أو 4.2 "الكلام غير المباح: لا تزال شهرزاد تروي"، وهكذا دواليك.

ولتوضيح إستراتيجيّة الكتابة بشكل أوسع قليلًا، اسمحوا لي أن أعرض القسم الثاني من الفصل الأوّل "بين الكلاسيكية والرومانسية". حيث يدرس هذا القسم قصّة من مجموعة للكاتب مصطفى مرّار بعُنوان "طريق الآلام وقصص أخرى"، والذي يضيف إليه المؤلّف العبارة المؤثّرة "زوال الإرث الكلاسيكيّ". وبالمناسبة، إنّ هذه الإستراتيجية البلاغية "الاستباقية" تجسّد مركَزية "العُنوان" وتنوّعه بالنسبة إلى النصّ النقديّ بقدْر ما تجسّد عناوين القصص نصوصها الأدبية.

إنّ تحليل قصّة "طريق الآلام" يحمل بالكامل التقييم الاستباقيّ في العُنوان الفرعيّ الملحق. وفيما يلي وصف المؤلّف لعدم كفاية صياغة مصطفى مرّار للموقف النصّيّ قيد التحليل: إنّ القراءة المتمعّنة في هذه القصص الأربع تؤكّد الهالة العامّة التي استند إليها العُنوان؛ فهذا منهج كلاسيكيّ جديد بالتأكيد لا يكاد يحمل أيّ أثر للواقعية أو حتّى الرومانسية في محامل هذه القصص. ويستحضر هذا الانطباع – في أعقابه – جوّ القصص العربية المكتوبة في نهاية القرن التاسع عشر، وخصوصًا فيما يتعلّق بالخيال الحرّ والصلة الهزيلة بالواقع (37).1

وهكذا، يبدو أنّ الاختبار الحاسم للتقدّم والسلامة الفنّيّة يتمثّل – إلى حدّ كبير – في تعديل مستوى اللغة إلى المتطلّبات الفنّيّة\الجماليّة للموقف المعبَّر عنه بشكل دراميّ في النصّ. فمن خلال إنطاقه لشخصيّاته البسيطة بالفصحى، أو العربية "الكلاسيكية"، بدلًا من العامّيّة، ينتهك مرّار هذا المبدأ الرئيسيّ في الواقعية. حيث يفتح هذا الفحص الدقيق لتوتّر المراجعات 178 الدائم والمتأصّل في التفاعل بين اللهجات الرسمية\القياسية وغير الفصحى\العامّيّة للغة العربية في النصّ نفسه – يفتح آفاقًا جديدة للبحوث الأصلية يندر تناولها حتّى الآن. وفي هذا الصدد، يكون من الجدير بالذكر أنّ استخدام العامّيّة في الأعمال الأدبية المكتوبة بالعربية القياسية كان أمرًا مستنكرًا حتّى لدى روّاد الواقعية الأدبية، مثل الكاتب المصريّ الحائز جائزة نوبل، نجيب محفوظ.

وبالمثل، إنّ حالة أقلّيّة العرب الفِلَسطينيين في إسرائيل غالبًا ما تستدعي تأكيد الانتماء إلى الأرض، أحيانًا من خلال التذرّع بالعامّيّة الغريبة (ضيّقة الأفق) لمكان ولادة الشخصية الخيالية (أو المؤلّف). ولأسباب مماثلة، تستخدم الكاتبات العربيات في إسرائيل، أحيانًا، العامّيّة لخدمة الأجندة النِّسْوِيّة التي ترفض التحدّيات، وإن كان ذلك في مجال الخيال، فقط، في الوقت الحاضر، والسيطرة الذكوريّة في المجتمع والثقافة العربية. ويتّضح من تحليل المؤلّف أنّ استخدام العامّيّة في العُنوان أو النصّ، وخصوصًا استخدام ما يُعتبر لغة فاحشة أو غير لائقة، يهدف إلى زعزعة استقرار القناعات والمحرّمات الاجتماعية فيما يتعلّق بالمعايير الاجتماعية للملاءمة؛ حيث يمثّل استخدام اللغة المماثلة غالبًا صفعة مقصودة على وجه الرقابة.

أمّا إذا كانت الأعمال الأدبية تمتلك – في جوهرها – وكالة تاريخية أو كان استخدام العامّيّة – بما في ذلك العامّيّة "غير اللائقة" أو حتّى "الفاحشة" – يحسّن – بالضرورة – نصًّا أو يروّج لتمكين مجموعة اجتماعية محدّدة – لهي أسئلة ذات صلة ولكنّها تمهيدية. ومن جانب آخر، إنّ سلسلة السببيّة التي تستند إليها حجج الكتّاب حول هذا الأمر هي كالتالي: يعطي الاستخدام الفعّال للعامّيّة في الخيال الفِلَسطينيّ السرد قوّة واقعية تعزّز من الاستيراد الفنّيّ لهذه الكتابة. ومن خلال المصداقية الناتجة للسرد العامّيّ الخصب، والمغلّف باللّهجات الإقليمية المميّزة للشخصيات الفِلَسطينية الدرامية التي بقيت على الأرض بعد عام 1948، يعيد ذلك الخيال تأكيد السرد الفِلَسطينيّ للهُويّة الوطنية ويوجّهها. ومن نافلة القول إنّ هذه الجدلية تنطبق بالمثل على أعمال الكاتبات الفِلَسطينيّات، مع الأجندة النِّسْوِيّة المضافة حتمًا.2

وأودّ الآن تناول السؤال الهامّ حول المنهج النقديّ المستخدم في الكتاب. فمن الواضح أنّ هناك علاقة سببيّة محدّدة بين الأسلوب والأثر في هذه الدراسة. حيث يقيس القالب الموحّد للبحث بشكل كبير وظيفة المنهج النقديّ الصارم الذي يضيء طريقه ويحافظ عليه. وبدون استثناء، وبغضّ النظر عن السؤال قيد الدراسة، فإنّ الكتابة تبرز اهتمامًا دقيقًا بالضروريّات الهامّة للعمق والاتّساق والوضوح والدقّة، بالإضافة إلى سمة أسلوبية ملحوظة في الغالب.

وبجِدّيّة فكرية دائمة، يتّسم نهج المؤلّف نحو النصوص الأدبية بالرسمية – إن لم تكن الشكلية تمامًا – بطبيعته، وبالطرد المركَزيّ في توجيه المراجعات 179 لمجلّة الدراسات الشرقية. وبهذا أعني أنّ النصّ الأدبيّ يتمتّع بأولويّة المكان، ويدعو ويقرّ وحده بالاعتبارات النظرية والنقدية واللغوية والثقافية والتاريخية التي تؤطّره. وسواء أكانت نقطة انطلاقه هي العُنوان أم الموضوع أم اللغة أم أيّ جانب آخر من جوانب النصّ، فإنّ نهج الطرد المركَزيّ هذا يشمل تحليل وجهات النظر ذات الصلة – اللغوية، السيميائية، التناصّيّة، الـﭙـارا نصّيّة، العابرة للأنواع الأدبية، وغيرها – والتي تربط النصّ وتحليله بأطر مرجعية وإدراك أوسع وأعمّ. إنّ الملاحظات الموسّعة والمفصّلة التي ترافق التحليل المتجدّد وقائمة المراجع الموسّعة والمتناسقة بالمثل – تشهد على استيعاب استثنائيّ والتزام لا يتزعزع بالمعايير العلمية العالية.

وفي هذه النواحي الأساسية يتردّد صدى كتابة المؤلّف بقوة مع أفضل تقاليد الدراسة الكلاسيكية، تمامًا كما تتناقض بشدّة مع الكتابة الأكاديمية الحديثة في الأدب العربيّ التي تميل إلى نقل النصّ إلى موقع ثانويّ لصالح نظرية أدبية خادعة واحدة أو غيرها. ومن غير المهمّ ما هو الذي يوجّه هذا الانجراف، والذي يحدث لربّما وخصوصًا في الأكاديمية الأمريكية – الافتتان بالنظريات الدارجة والمعروفة المحدودة باللغة العربية (وبالتالي عدم القدرة على الانخراط مباشرة في المصادر الرئيسية للأدب العربي)، أو توليفة من الأمرين – حيث النتيجة النهائية فاشلة في كلّ الأحوال. وهي تميل إلى "تنظير" النصّ الأدبيّ نفسه خارج الوجود. ولهذه الأسباب والعديد غيرها يبشّر ظهور دراسات مستنيرة نظريًّا ودقيقة نقديًّا مثل هذا الكتاب بنقلة نوعية في مجال الدراسات الأدبية العربية.

وفي حين أنّ طلّاب وباحثي الأدب عمومًا، والأدب العربيّ خصوصًا، هم الأكثر استفادة من نشر هذا الكتاب، فإنّ نطاقه وأهميّته لا يقتصران عليهم. حيث يتجاوز الكتاب بأهمّيته وصلته إلى أبعد من ذلك، ليقتحم مباشرة مجموعة من الميادين والمجالات ذات الأهمّية عبر الأطياف الأكاديمية والعلمية والفكرية الواسعة. ولعلّ هذا هو السبب في أنّ الكتاب قد نُشر، أيضًا، بالإنـﭽـليزية بالفعل. هذا ومن المرجّح أن يستفيد الطلّاب والباحثون في المجالات ذات الصلة، مثل الدراسات العربية\الإسلامية، التاريخ، اللغويات، الدراسات الثقافية، علم الإنسان (أنثروﭘـولوجيا)، الفولكلور، الدراسات العِرقيّة، دراسات الجُنوسَة (الجِنْدِر)، دراسات المرأة، وغيرها – من المرجّح أن يستفيدوا من النهج النقديّ الدقيق والمعرفة الواسعة والرؤى العميقة لهذه الدراسة المتميّزة.